دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

مسيحُ التاريخ
مسيحٌ حيٌّ

الأب متى المسكين

كتاب: مسيح التاريخ مسيحٌ حي
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولي: ٢٠١٨
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.
ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

يُطلب من:
دار مجلة مرقس
القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من: مكتبة الدير
أو من خلال الموقع على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org

مسيح التاريخ مسيحٌ حي

+ «**وأنتم مَنْ تقولون إني أنا ...**
أنتَ هو المسيح ابن الله الحيّ.»
(مت ١٦: ١٥ و ١٦)

كان ميلاد المسيح وموته ثم قيامته حوادث خارقة تفوق حجمها التاريخي، وها هو أثرها المباشر على كل البشرية قد تعدَّى كل قياس ومنطق بشري. أما عن شخصية "**يسوع**"، فيكفي أن نأخذ في الاعتبار ما انتهى إليه التلاميذ بعد قيامة المسيح، بعد عِشْرةٍ دامت أكثر من ثلاث سنوات، في تقريرهم الذي أعلنوه أثناء محاكمتهم، كشهادة قاطعة أمام رؤساء شعب اليهود وشيوخهم وكتبتهم المجتمعين في أُورشليم مع حنَّان رئيس الكهنة وقيافا هكذا: «**ليس بأحد غيره الخلاص، لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلُص.**» (أع ٤: ٥ - ١٢)

لذلك ينبغي أن نلتفت غاية الالتفات عندما يروي لنا الإنجيل حياة «يسوع المسيح». فما نقرأه في إنجيل القديس متى وإنجيل القديس لوقا وكأنه قصة عن ميلاد بشري حَدَثَ في صميم التاريخ، يعود ويضعه لنا القديس يوحنا الرسول في معناه الإلهي الفائق للتاريخ، **فميلاد الطفل يسوع** عند "متى" و"لوقا" هو عند "يوحنا" «**تجسُّد الكلمة الإله الكائن منذ البدء**».

كذلك في موضوع الموت، فبينما تروي الأناجيل الثلاثة قصة موت المسيح من زاوية التاريخ الفردي البشري للمسيح، ينبري الإنجيل الرابع ويرفعها فوق مستوى التاريخ الفردي، ويكشف فيها سر الفداء الإلهي الذي شمل البشرية بأجمعها هكذا:

+ «فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً ... فقال لهم واحد منهم وهو قيافا كان رئيساً للكهنة في تلك السنة، أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب (استرضاءً للرومان) ولا تهلك الأمة كلها (يستولي الرومان على إسرائيل)، ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبَّأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأُمة (استرضاءً لله)، وليس عن الأُمة فقط، **بل ليجمع أبناء الله المتفرِّقين (كل شعوب العالم) إلى واحد (المسيح)**.» (يو ١١: ٤٧ - ٥٢)

وهكذا نرى ونُحسُّ في صميم الأناجيل **كيف يلتحم التاريخ بالأبدية!!** وذلك باتفاق مذهل للعقل.

فالتاريخ كان ولا يزال هو التاريخ، لا يحكي إلا الماضي بحوادثه التي ماتت وانتهت، موقَّعة على الأيام والشهور والسنين، وكان يستحيل أن يعقل الإنسان أبداً أن يلتحم التاريخ يوماً بالأبدية، فينتصب التاريخ هكذا - في شخص يسوع المسيح - واقفاً على رجليه **حيًّا محيياً فعَّالاً شامخاً متداخلاً في عمق أعماق الله والأبدية، حاملاً ماضي الإنسان الميت في حياة أبدية لا تزول ولا تموت!!**

كان التاريخ – أي الزمان – هو الحد الذي تنتهي عنده قصة كل خليقة **خُلقت فعاشت ثم ماتت**، إلى أن وُلِدَ في ملء الزمان، موقَّعاً على التاريخ في ساعة من يوم، ويومٍ من شهر، وشهرٍ من سنة، **طفلٌ يُدعى «يسوع» كُتب اسمه في سجلات التعداد الإمبراطوري كمواطن، منذ ألفي سنة خلت. ومنذ ولادته هذه وبحسب سجلات الأناجيل بدأت تلحُّ الحوادث العلنية بإشارات صارخة أنْ هنا وفي هذا "الطفل" يبدأ سرٌّ جديد للإنسان!!** سرٌّ يمتد بتاريخ الإنسان إلى ما فوق الإنسان والزمان والمكان، **يمتد ليشمل السماء وخلائق السماء غير المنظورة يمتد في الأبدية والله!**

وهكذا يسجِّل لنا إنجيل القديس لوقا (٢: ٨ – ١٤):

+ «وكان في تلك الكورة رعاة متبدِّين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم. وإذا ملاك الرب وقف بهم، ومجد الرب أضاء حولهم فخافوا خوفاً عظيماً. فقال لهم الملاك لا تخافوا، فها أنا أُبشِّركم **بفرحٍ عظيم يكون لجميع الشعب**. إنه وُلِدَ لكم اليوم في مدينة داود **مخلِّص** هو المسيح **الرب**. وهذه لكم العلامة تجدون طفلاً مقمطاً مضجعاً في مذود. وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السمائي مسبِّحين الله وقائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام
وبالناس المسرَّة».

كان هذا الحدَث السماوي أول خَرْقٍ صارخ لحدود اختصاص الإنسان وقدرته على التأريخ في مستوى الزمان، فاقتحام الملائكة وجمهور جند السماء لمحيط رؤية وسماع الإنسان شيء لا يدخل في اختصاص

التاريخ ولا اختصاص الرؤية والسماع البشريين أصلاً!! هذا تعبير واضح أن المولود **فائق الوجود، ووجوده حالما تمَّ على المستوى البشري الأرضي في مذود بيت لحم، اخترق في الحال الوجود الإلهي السمائي وانكشف تأثيره الفعَّال في الأعالي.**

الملاك هنا يأخذ مهمَّة غاية في الغرابة، إذ يظهر كمبشِّر لخدمة الإنسان، فيتولَّى بناءً عن أوامر صادرة إليه من الله **أن ينبِّه الإنسان إلى مدى أهمية "هذا اليوم"** في تاريخ البشرية، بصفته يوم "**فرح عظيم**"، ستظل البشرية تستمد منه مسرَّتها على كل الأرض. فيوم "**ميلاد**" **المسيح** هو في مضمونه الإلهي **ميلاد** "**مخلِّص**".

الملاك هنا يدخل ولأول مرَّة في تاريخ الإنسان كمسجِّل أيام، ولكنه في ذات الوقت يرفع الغطاء عن قيمة هذا الزمن المخْفي في طبيعة ذلك المولود، باعتباره ليس يوم بشر بل "**يوم خلاص**" و"**فرح عظيم**" و"**مسرَّة بين الناس**"!! فبميلاد هذا المولود "**المخلِّص**" ينقضي زمان الأحزان، **ويبدأ زمان المسرَّة** إذ ينقضي زمان **عصيان الإنسان** ويبدأ **زمان تمجيد الله على الأرض** بواسطة الناس، كما هو في السماء بواسطة الملائكة سواءً بسواء!! وهكذا وإن بدا في بشارة الملاك بداية زمنية: "**اليوم**"، ولكنها في حقيقتها بداية تاريخ ما بعد التاريخ، **تاريخ الخلاص الأبدي، تاريخ الفرح الإلهي** الذي سينسكب على الأرض، ولن يُنزع من قلب الإنسان!

وهكذا فإن اقتحام الملاك وجمهور جُند السماء لعالم الإنسان هو في الحقيقة وبالتالي بداية **لاقتحام الإنسان لعالم السماء والملائكة والله،** في شخص ذلك المولود الفائق لحدود الزمان والمكان. أي أن **ميلاد**

المسيح كان بداية مصالحة عُظمى بين العالمين: الله وملائكته، والإنسان وأحزانه. بدء كشف ما في السماء واستعلان ما لا يُرى!

ومن الميلاد بدأ الإنجيليون يؤرِّخون لحوادث المسيح، ولكن لا يظن أحد **أن الإنجيل كتاب تاريخ** يُمكن أن يوضع على مستوى التحليل والتحقيق المجرَّد. هنا خداع البصر الذي طالما وقع فيه المؤرِّخون والباحثون فعثروا في تحقيق شخص المسيح الذي سبق ونبَّه كل إنسان أن لا يقترب إليه بغير إيمان قائلاً: «**طوبى لمن لا يعثر فيَّ**» (لو ٧: ٢٣). **فأبدية المسيح** يستحيل أن تُوَقَّع على تاريخ بشري بدون عنصر **الإيمان والإلهام الذي يرتفع بالتاريخ إلى مستوى الخلود.**

والحق الذي لا يحتاج إلى مزيد إيضاح، أن الإنجيليين إنما أرَّخوا لله وليس لإنسان!! أرَّخوا لتحقيق مواعيد الله الأزلية منذ الدهور، التي تمَّت في وقتها المحدَّد في يسوع المسيح ابنه الذي استودعه الله أرضاً في جسد مثل جسدنا؛ الموعود به بفم جميع الأنبياء في الأسفار المقدَّسة التي نقشها الروح القدس على قلوب الأوَّلين. وحفظها بحراسة مشدَّدة عبر الأزمنة المتوالية حتى يوم ظهوره.

فتاريخ المسيح هو تاريخ الله لخلاص الإنسان. والمسيح بحد ذاته هو كلمة الله للإنسان، كما عبَّر عنها بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين: «**الله كلَّمنا في ابنه في هذه الأيام الأخيرة.**» (عب ١: ١)

لذلك فإن بدت قصة حياة المسيح "**المُخلِّص**" وكأنها تاريخ موقَّع على الزمن، في حوادث يحدُّها الزمان والمكان، إلا أنها بالحقيقة هي هي استعلان الله في الصميم البشري، **استعلان السماء على الأرض، استعلان الأبدية في ملء الزمن!**

الإنجيل وإن بدا كأنه قصة كتبها أربعة من الأخصاء المتخصِّصين في تتبع كل ما حدث بتدقيق، وبعضهم شهود عيان؛ إلا أن الروح القدس الملهِم للإنجيليين، بينما كان يتركهم يصوِّرون المسيح من واقع رؤيتهم وخبرتهم ومشاهدتهم كما رأوه ولمسوه وسمعوه، كان في ذات الوقت يضبط بنفسه عبر نفسه كل مشاهدة وكل خبرة وربطها بمصدرها الإلهي في إشارة خفية أو عبارة توضيحية يعلن بواسطتها **سر الأبدية** من خلال التاريخ، **وسر غير المنظور** في المنظور، بل **سر الإله** في الجسد!!

وهكذا **لا يخُفق الإنجيل في الكشف عن شخصية المسيح الفائقة**، حتى أنه لا يصعب إطلاقاً حتى ولا على الإنسان البسيط الأمي أن يدرك بروحه **شخصية المسيح المتفوِّقة على التاريخ والحيَّة المؤثِّرة**، فوق الحوادث والملابسات، كابن الله الحي في كل سطر من سطور الإنجيل.

وهكذا استطاع الروح أن ينقل خبرة الإنجيليين ومشاهدتهم عَبْر نفسه – أي عَبرْ الروح القدس – ينقلها حيَّة كما هي، كما رأوها وانفعلوا بها، كما قبلوها بفرح لا يُنطق به واستودعوها أعماق إيمانهم، ويوحنا الرسول يفصح لنا عن صدق هذا الإحساس الذي كان يَسْري فيه أثناء كتابته للإنجيل هكذا:

+ «**الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة. فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأمَّا شركتنا نحن**

فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (١يو ١: ١ - ٤)

لذلك أصبح على قارئ الإنجيل أن يتمسَّك بالروح الذي يُمْلِي النص ولا يتجاوز قط عامل الروح وهو ينطلق بالتاريخ **نحو الأبدية** ويعبر بالمنظور إلى اللامنظور، وإلا فسيبقى القارئ تائهاً في مضمون التاريخ يبحث عن الحي وسط الأموات!!

إذ يستحيل تماماً بحسب التقليد الشرحي للإنجيل **أن يدرك الإنسان أن المسيح ربٌّ إلا بالروح القدس**، كذلك فالمسيح لا يمكن أن يعلن ذاته لأحد قط إلا بواسطة الآب السماوي. وهذا يكشف لنا عن مدى الصلة العميقة الجوهرية اللانهائية بين الآب والابن والروح القدس لا من جهة كيانهم الذاتي فحسب بل ومن جهة إمكانية استعلانهم، إذ يستحيل أن يُعلَن الله إلا ككل.

وهكذا فإن تجسُّد المسيح وميلاده ودخوله في صميم التاريخ الإنساني جعل الإنجيل يتنقَّل بين التاريخ والأبدية بسهولة وسريَّة فائقة للعقل، **جاعلاً الله في متناول الإدراك الإنساني بعد العزلة والغربة والانفصال بل والعداوة التي عاشها الإنسان بعيداً بعيداً جدًّا عن الله الواحد القدوس المطلق اللامُدرَك.**

وبذلك لا يغيب عن بالنا قط أن التحام الأبدية بالتاريخ التحاماً واقعياً ملموساً ومحسوساً حيًّا لم يُعرف أبداً ولم يخطر على قلب إنسان قط قبل ميلاد المسيح، **إذ فيه استُعْلِن الله شخصياً للإنسان!** وفيه أيضاً **رُئي غير المنظور وأُدرك غير المدرَك**، في صفات حيَّة إلهية وأعمالٍ إعجازية فائقة تنطق بصدق ذلك الاستعلان.

ولكن يلزمنا أن ننبِّه دائماً أن كلَّ مَنْ يدخل الإنجيل على مستوى التحقيق التاريخي فقط باحثاً ومدقِّقاً ومحلِّلاً فيمَنْ هو المسيح، إنما يتجاهل عنصراً أساسياً آخر في صميم مدخل الإنجيل، فالإنجيليون كانوا يكتبون الإنجيل ويحقِّقون تاريخه وعيونهم شاخصة **نحو المسيح كرب وإله**، يرونه عَبْرَ الأيام حيًّا أمام عيونهم وقلوبهم، فخرج الإنجيل من تحت أيديهم، لا كنصوص مدقِّقة لتاريخ أمين يحكي عن إنسان يُدعَى "**يسوع**" آمن به الناس في ذلك الزمان، بل على النقيض تماماً – إذ كانوا يحاولون جاهدين إرجاع الحقيقة الحيَّة الواقفة أمام عيونهم وقلوبهم – **أي حقيقة الرب يسوع المسيح ابن الله الحي الذي يملأ كيانهم ووجدانهم وإيمانهم**، يُرجعونها إلى توقيعاتها الزمنية بحسب تاريخها الذي سجَّلته ذاكرتهم بكل إخلاص وأمانة، **لكي يثبتوا للمؤمنين أن يسوع المسيح الحي الذي قام من بين الأموات بمجد عظيم ورأوه وعاشروه بعد قيامته إلهاً بكل يقين، أنه هو نفسه الذي وُلِدَ في بيت لحم وعاش في الناصرة وبشَّر في الجليل وصُلب في أُورشليم.**

لذلك أصبح لزاماً على قارئ الإنجيل أن يضع هذه الحقيقة الحيَّة نصب عينيه قبل أن يخوض الإنجيل، وبذلك يتجلَّى التاريخ أمامه، **فالإنجيل كتاب إيمان قبل أن يكون كتاب تاريخ**، لذلك **فالإيمان "بشخص" يسوع المسيح هو الذي يكشف كل أسرار الإنجيل ويحل كل مشاكله التاريخية كقصة كُتبت منذ ألفي عام**، لذلك رأينا ونرى كل يوم أن الإنجيل يُستعلن بعمقٍ ونعمة وبصيرة أكثر لبسطاء القلوب ذوي الإيمان الوثيق.

على أن الإنجيل لا يُعلن الحق الذي فيه كنظرية عامة يكون على

الإنسان أن يقبلها ككلٍ أو يرفضها ككلٍ، بل إنه يخاطب كل قلب خطاباً خاصاً وشخصياً، فيعلن الحق لكل إنسان على قدر قامته الروحية واستعداده الإيماني وقبوله للحقيقة، إعلاناً متصلاً متلاحقاً ينمو مع الإيمان والأيام!

وبذلك فجيد لقارئ الإنجيل أن يتقدَّم إلى الحقيقة المدوَّنة فيه من منظار كاتبها وروحه، **وأن لا يستقبل الكلمات مجرَّدة عن الروح الذي فيها**، وهذا ليس تصعيباً أو تعسُّفاً منا تجاه القارئ، ولكنه هو سر الإنجيل نكشفه في اختصار، فإن أطاع القارئ روح كاتب الإنجيل والتزم بتأكيدها وأخضع ذهنه للحقيقة، فسوف تتجلَّى الحقيقة أمامه كما رآها الكاتب تماماً، وحينئذ سوف يُمس بتيار الروح في الإنجيل وبمدِّه السرِّي الذي ينطلق بعقل الإنسان وقلبه من "**الكلمة**" إلى "**شخص**" يسوع المسيح مباشرة وجهاً لوجه.

وهكذا تتم معجزة الإنجيل «**وفتح ذهنهم ليفهموا الكتب**» (لو ٢٤: ٤٥). **وحينئذ يتجلَّى التاريخ ويُستعلن المسيح إلهاً ببرهان الروح في القلب!**

ثم امتداداً من ذلك، أي من الانتباه الشديد لروح كاتب الإنجيل والانصياع الحرّ للروح القدس الذي يوجِّه الكلمات ويصيغها ليُدخلها في قلب القارئ كقوَّة لا تحتاج لبرهان، ننتقل إلى ضرورة الانتباه إلى **كلمات المسيح نفسه التي كان يقولها ويؤكِّد عليها بهدوء ووثوق، فبمجرَّد الانتباه القلبي لهذه الكلمات نستطيع أن نحس بشخصية المسيح نفسه. فالمسيح كان في الحقيقة ينطق ذاته في كل قول وكلمة!!**

فحينما نُرْهِفُ الإحساس لتكراره للعلاقة التي تربطه بالله، ندرك في الحال بشعور واثق أكيد **سر بنُوَّة المسيح الأزلية لله**، اسمعه يقول[1]: «**أبي الذي في السموات**»، «**أبي السماوي يفعل**»، «**ينبغي أن أكون فيما لأبي**»، «**أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل**»، «**أبي الذي أعطاني إيَّاها**»، «**أعمالاً كثيرة حسنة أَرَيْتُكم من عند أبي**»، «**أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرَّام**»، «يا **أبَّا. الآب**». العلاقة هنا بين المسيح والله نَحُسُّها بلا أيَّة صعوبة أنها **أزلية** وأنها **فائقة لوضعه البشري** وأنها **موجودة قبل ميلاده في بيت لحم** بكل تأكيد!!

الكلمات هنا أو هذه المنطوقات كبيرة وضخمة بحد ذاتها، ولكنها تشير بسهولة وبلا تعقيد **أن قائلها أو ناطقها أكبر وأضخم منها**، والمعنى اللاهوتي الذي تشير إليه هذه الاصطلاحات عميق وخطير، ولكن لا يصعب على القارئ أو السامع أن يحس أن **العقل الذي صاغها ونطقها أعمق وأخطر!!** كذلك فإن **جرأة التعبير هنا فائقة بالفعل على كل تصوُّر، ولكنها جرأة واثقة وديعة تقود المنطق إلى التسليم بلا عناء بأن المسيح هنا إنما يتكلَّم الحقيقة وهو يعبِّر عن نفسه بسلطان بلا تكلُّف!**

حقًّا إن **المسيح المتكلِّم في الإنجيل إنما ينطق ذاته، ينطق الحق، ينطق الله!!... المسيح كلمة الله!!**

هذه الحقيقة – **أي بنوَّة المسيح الأزلية لله** – كان يُرسِّخها المسيح في أذهان تلاميذه لندرك فيها سر **علاقته الشخصية بالآب**، هذا السر الذي سيكون بحد ذاته **واسطة تَقَرُّبنا نحن فيه إلى الله كأب لنا أيضاً!!**

---

[1] مت ١٦: ١٧، ١٨: ٣٥، لو ٢: ٤٩، يو ١٠: ٢٩ و٣٢، ٢٥: ١، مر ١٤: ٣٦.

ثم يعود المسيح في مواضع أخرى يؤكِّد على حقيقة أخرى بالغة الأهمية وهي: **استعلان ملكوت الله وارتباط ذلك بشخصه ومجيئه إلى العالم**. فكان أول خطاب كرازي للعالم نطقه المسيح هو «**توبوا لأنه قد اقترب منكم ملكوت السموات** (الله)» (مت ٤: ١٧)، **مُشيراً بذلك إلى نفسه**. ثم أخذ على مدى حياته على الأرض يؤكِّد ويشدِّد على **أن ملكوت الله قد بدأ، وأتى، وسيأتي، مُعْلِناً انفتاح عهد ملكوت الله للإنسان بمجيئه إلى العالم - مُشيراً إلى أن بتجسُّده وميلاده ابتدأ دخول الإنسان الفعلي في دائرة ملكوت الله في شخصه، إذ لبس هو جسد الإنسان!** وبالتالي دخول **كل مَنْ يتحد به بالإيمان**، وهذا ما أكَّدته الملائكة يوم ميلاده حينما هتف جمهور جند السماء: «**المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرَّة**» (لو ٢: ١٤)، **هنا دخول الأرض والإنسان في دائرة مجد الله وسلامه يعني دخول ملكوت الله إلى عالم الإنسان.**

هذا التأكيد ظل المسيح يشير إليه ويؤكِّده حتى يوم صلبوته وهو واقف أمام بيلاطس:

+ «فقال له بيلاطس: **أفأنت إذن ملك؟** أجاب يسوع: أنت تقول **إني ملك، لهذا قد وُلِدت أنا ولهذا قد أتيتُ إلى العالم** ..» (يو ١٨: ٣٧)

هذا التصريح لا ندرك خطورته وهَيْبَته إلا إذا تذكَّرنا أنه واقف أمام بيلاطس، وأن العلَّة الأساسية التي سوف يأخذ بها بيلاطس في حيثيات الحكم لصلب المدعو "**يسوع**" هي ادعاؤه القول: «**إني ملك.**» (يو ١٨: ٣٧)

كذلك لا يغيب عن بالنا المفارقة الخيالية بين تأكيده أنه ملك والصليب منصوب أمامه والجنود يستعدون **لصلبه وكأس المرارة ممزوج ومهيَّأ!!** ثم هل ننسى تعرية الظهر والسياط والضرب على الرأس والبصاق في الوجه؟ أمام كل هذا لا يزال المسيح نسمعه يصر: «**إني ملك، لهذا قد وُلِدتُ أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم!!**». فالآن لنغمض أعيننا إلى لحظة هذا المشهد من جديد، ثم نرهف السمع لنسمعه ينطق بهذا الإعلان المهيب بصوته الواثق، وحينئذ سوف يداخلنا إحساس إيماني لا يناقَض قط **أن هذا حقًّا هو ابن الله وأن ملكوته ملكوت أبدي ما لن يزول**، لكن ليس قطعاً من هذا الدهر ولا على الذين من هذا الدهر، **وإن كان بميلاده هو دخل ملكوت الله إلى عالمنا، فبموته دخلنا نحن ملكوت الله في سماواته!!**

والآن، عودٌ على بدءٍ:

فمرَّة أُخرى نحن في بيت لحم، في بيت متواضع استأجره يوسف بعد الوضع، والعذراء جالسة والطفل يسوع على حِجْرِها، وهو الآن يناهز الثانية من عمره إلا قليلاً، الوقت مساء، والعتمة تخيِّم داخل البيت وخارجه في الحيِّ وكل المدينة، ويوسف راقد بجوار المدفأة، وفجأة يشعُّ نور شديد كالبرق يملأ داخل البيت وخارجه. فيهبُّ يوسف مُسرعاً نحو الخارج **ليرى نجماً شديد اللمعان وقد وقف في السماء فوق البيت تماماً وكأنه يشير بشعاعه حيث كان الصبي، فأدرك يوسف في الحال أن في الأمر إعلاناً**؛ ولم يكد يدخل ليخبر العذراء حتى سمع

حركة في الزقاق وجلبة مفاجئة على الباب. **فخرج. وإذا به يرى منظراً أخَّاذاً على ضوء النجم: قافلة من جمال مزركشة يقودها جماعة من العبيد، وعليها رجال شيوخ تبدو عليهم سيماء العظمة والغِنَى، أمراء من المشرق، فيحطون الرحال، والفرح والبشر يملأ وجوههم. وقد بدا عليهم الإعياء من جَرى سفر طويل مضني!**

ثم يتقدَّمون ويسألون يوسف: هل بالدار طفلٌ مولود ناهز السنتين أو دون؟ بشارته جاءت من السماء، أُمه عذراء، وتكلَّم عنه الأنبياء؟ فأشار لهم يوسف وإصبعه على فمه، وأسرع وأخذهم صامتاً داخل الدار حيث كان الصبي مع أُمه، ولدهشة يوسف رأى وجه الصبي مُضيئاً، وكأن شعاعاً من النجم اخترق الجدار وارتسم على وجهه، وأُمه غارقة في النور، وكأن السماء مفتوحة!

فخرَّ المجوس (الحكماء) في الحال سجوداً، ووقفوا أمام الصبي ينشدون نشيداً مطرباً، بوقار يفوق الوصف، والفرح يطفح على وجوههم والدموع تسيل على لحاهم البيضاء تشع كالنور.

ثم تقدَّموا نحو الصبي، كل أمير وعلى يديه هدية، سجد الأول وفتح كنوزه فإذا هي ذهب مرصوص كالذي تُرصَّع به تيجان الملوك!

وسجد الثاني وعلى يديه حُقّ بخور أخذوا منه ونثروا على يدي الطفل فبدا وكأنه كاهن يحمل رسالة.

وسجد الثالث وعلى يديه صُرَّة مُرَّ، كالتي قدَّموها له يوم صلبوته، أو ربما هي بذاتها حفظوها له ليوم آلامه!

عجبي على هؤلاء الحكماء وعلى هداياهم، وعجبي أشدّ على الذي أرسلهم وهداهم!

ومرَّة أخرى نعود على ذي ختام، والروح أمامنا ينطق بغير لسان، فالذهب في أيدي المجوس! إن كان بحسب الرواية فهو لا يزيد عن كونه مالاً وغِنَى وتحيَّة وهدية، أما بحسب الروح **فهو تتويج وملوكية، تُوِّج به الطفل وهو في مهده صبيًّا**، ليكون المسيح صادقاً دائماً أبداً. ألم نسمعه حالاً منذ سطور قليلة يقول لبيلاطس: «**إني ملك، لهذا قد وُلِدتُ أنا**، ولهذا قد أتيتُ إلى العالم؟».

ثم عجبي على الإنجيل وما احتوى، فالنهاية فيه تنعكف لتضيء البداية، والبداية تلقى نورها قويًّا وهَّاجاً توصلك في يُسر إلى ختام الرواية.

وهكذا يَسري الروح بين السطور والكلمات ويتنقَّل بين الأصحاحات،
فطوبى لمَنْ اتَّبع الروح ليسير في النور.
لمثل هذا يُستعلَن سرُّ المسيح في الإنجيل.

(يناير ١٩٧٦)